أنور شاؤل

مذكرات صباغ احذية

اسلوب مبتكر في نقد بعض المعايب الاجتماعية

نشرت متسلسلة في مجلة الحاصد الأسبوعية
في أعدادها 12 – 31 من سنتها السادسة
(16 تموز – 26 تشرين الثاني 1936)

(حقوق إعادة النشر بأية صورة كانت محفوظة لعائلة الكاتب)

عرس سعيد

ـ في الساعة الحادية من ظهر الغد .. لا تنس

ـ على عيني .. وعلى رأسي ... سأحضر في الوقت المعين

وكانت علامات البشر تلوح على وجه الام وهي تضرب لي موعد الغد . ولماذا لا تسر وتفرح ؟ بل لماذا لا يسر كل افراد العائلة وغداً تزف ابنتهم الوحيدة ـ ولا اتذكر اسمها ـ الى اشهر شبان العاصمة على الاطلاق من حيث القيافة واللطف والاتيكيت . «سالم» ومن يجهل «سالماً» ومغامرات «سالم» ومواقف «سالم» في تاريخ الحب والمغازلات ؟ انه حديث الخاص والعام ومطمح انظار اكثر العائلات .. وانها لصدفة من صدف الدهر .. بل نعمة من نعم القدر .. ان يتنزل الى خطب يد ابنة هذه العائلة المشهورة بتواضعها ونبلها .. والعصر كما يعرف السادة عصر تهويش وبصبصة لا قيمة فيه للتواضع والنبل .

ورجوت الله من صميم قلبي ان تحظى هذه الفتاة الوادعة بكل طمأنينة وهناءة في حياتها الزوجية التي ستبدأ صفحتها الاولى غداً . فقد عرفتها احامة لطيفة الخلق ـــ تزدان بثقافة طيبة يعجز كثير من متبجحي شباب اليوم عن مجاراتها فيها ؟

وكان ليل . . . وكان نهار . . .

وبعد جولة في بعض الدور بلغت بيت العرس في الساعة الحادية تماماً فاذا الحركة قائمة فيه على قدم وساق ، خدم تروح وتغدو ، اوامر مختلفة تصدرها الام لهذا ولذاك الوالد لا ينفك عن دفع الدراهم لشراء مختلف اللوازم .

ـ الترييئات .. اين الورق الملون ؟ هل مدت المصابيح الكهربائية ؟ يجب ان لا يقل عدد الوانها عن السبعة .. ولا تنسوا الموسيقى .. موسيقى الجيش .. حذار ان تغفلوا عن شيء ..

وكنت وانا اصبغ الحذاء تلو الحذاء اقول في نفسي « الا ما اسعد هذه العائلة » واني لاعترف هنا ان شعوراً غريباً غمر كياني في تلك الساعة . لم أفهم كنهه جيداً .. اعكن انه كان شعور الحنين الى شريك للحياة .. قد يكون ذلك !

قاربت الساعة الرابعة عندما فرغت من آخر حذاء واذ سلمت للانصراف الحت علي الام بالبقاء قائلة انني واحد من اهل البيت فاخجلني لطفها ولم ار بداً من البقاء فجلست على كرسي في احدى الزوايا .

واخذ المدعوون يتوافدون زرافات ووحدانا .. فتدار عليهم المرطبات وتقدم اليهم الحلويات والقهوة.. واكتمل العقد ولم يبق الا ان يحضر العريس الجميل ..

ـ انه آت ولاشك بعد دقائق معدودة. حسناً فلننتظر .. مرت عشر دقائق .. انه لابد مقبل قبل مرور خمس دقائق .. حسناً فلننتظر .. ومرت الخمس دقائق .. وخمس دقائق اخرى .. وعشر أخرى .

وسرى اللغط بين المدعوين . وتنوقلت الاشاعات .. فذهب كل مذهباً خاصاً.. وما لبث ان اعلن النبأ اليقين :

ـ ان حضرة العريس ، فالتينو المصري يطالب تعديل شروط الزواج .. لانه في الدقيقة الاخيرة الفاها بحجة بحقه .. وحقه معلوم وواضح . اذن فيجب ان يؤخر العقد، حتى يذعن الاهل صاغرين !

وانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم فمن آسف ومن متشف ومن حانق ومن ساخر.. واخذ الناس يغادرون الدار بين لغط وسكوت .. وكنت ابحث بعيني عن احد افراد الاسرة فلا اعثر على أحد.. لقد انزوى الكل في غرفهم.

وغادر الجمهور بيت العرس وانصرفت الموسيقى .. والخدم .. والحشم.. وكنت انا آخر المنصرفين وقبل ان اغلق الباب ورائي طرق سمعي زعيق مفجع صادر من احدى الغرف عرفت فيه صوت العروس المنكوبة!

بين قوسين

تتابعت الايام فزادتني خبرة واطلاعاً . حتى انني اصبحت اعتد بنفسي وبكفاءتي في فن الصباغة ، ذلك الفن الذي ان لم استطع تسميته بالفن الجميل فهو على كل حال فن ليس بقبيح . اليس هو الذي يصير من الحذاء القذر شيئاً لطيفاً براقاً يروق للعين النظر اليه بينما هناك فن جميل رغم كونه يسمى فن تجميل الوجه ، كثيراً ما يشوه الحلقة بتلطيخ اصباغ غير منسجمة مما يجعلك تنفر كل النفور من التطلع الى حاملة هذا الوجه العجيب او بالاحرى هذه الخارطة الملونة !

ولما لم نكن في موضع مناقشة فلسفة التبرج والتجمل وتحليل خواصهما فالاوفق الا اسهب في هذا الباب بل اعود الى القول انني اصبحت أشعر ان ما كسبته من خبرة في فن الصباغة واطلاع في مخالطة الناس كاف لان يشجعني على توسيع نطاق اعمالي والشروع بارتياد المحلات العامة من مقاهي وحدائق واندية وكازينوات حيث تكتظ الباحات الواسعات بجماهير الناس الغفيرة وحيث الرزق يأتيك بأقل تعب ، غير انني عز علي ان اجري تعديلا كهذا في سياستي الداخلية .. وتصورت صعوبة ترك زبائني الكثيرين من كرام العائلات وسواهم من غير الكرام .

وبعد تفكير عميق قررت ما يلي :

١ ـ المثابرة على ارتياد الدور فقط الى ما بعد ثلاثة شهور اخرى .

٢ ـ على ان اقوم بعد ثلاثة اشهر بتكثير ساعات العمل وجعلها تسع ساعات على الاقل عوضاً عن سبع ساعات كما هي الحالة اليوم وبهذه الطريقة سيكون بالامكان تخصيص ساعتين او اكثر لزيارة بعض الدور التي ما عاد بامكانها الاستغناء عن خدماتي ! وهكذا كان !

* * *

حادث بسيط

في مساء احد الايام رأيت صديقي (س) يتجول في سيره تتبعه فتاة تناهز العشرين من عمرها جذابة الملامح ، لطيفة القوام ، عرفت للفور انها خادمة لا من ملابسها ـ لأن هذه قد تخدع احياناً ـ انما لأن مهنة صديقي هذا ، هي تشغيل الخدم لدى العائلات .

ـ مساء الخير .. اراك تركض . خير ان شاء الله ـ طبيعي ما كو الا الخير ..

وحدج الخادمة بنظرة مرتاح معجب واردف قائلاً :

ـ لا شك ان حضرته يرضى في هذه المرة عن هذه الخادمة ويستبقيها في خدمته (على طول) حقاً انني لم اجد شخصاً شكس الاخلاق مثل هذا الزبون فقد اتيت له بتسعة

خدامين واربع عشرة خدامة في مدة لم تبلغ الشهر، كانت ملاحظاته عنهم تنحصر بكون هذا طويل. ذاك قصير. هذا اعشى. ذاك اعمش.. هذا متزوج والآخر اعزب. اما الخدامات فملاحظاته عنهن لا تعد ولا تحصى .. صدقني يا اخي انه احياناً يصرح لي قائلاً : ان الخادمة مالم تكن جميلة فهي ليست صالحة للخدمة في بيوت الناس.

كان صديقي يحدثني بصوت منخفض، انما بنبرة عميقة فكنت استمع اليه بكلتي وانحن سائران بخطوات واسعة.

وسألته :

- وهل زبونك هذا متزوج ؟

- نعم .. متزوج .. وهذا هو وجه الغرابة .. والاغرب من هذا وذاك ان زوجته تخشى ان تنتقد من اعماله شيئاً..

لا ادري ما اذا كانت الخادمة تنصت الى محاورتنا او انها كانت تلهى برؤية ما تصادفه في طريقها، غير ان الذي اعلمه جيداً انها كانت تساق سوق النعجة الى المجزرة .. مجزرة لا كالمجازر انما هي تختفي وراء بناء شاهق واسم اعتباري.

ووقف صاحبي فجأة ووقفت. ولكم كان استغرابي عظيماً عندما علمت ان الخادمة تقاد الى عائلة معروفة بدأت بصيغ احذيتها منذ اسبوع. ولكن رب العائلة يدعي بالوجاهة والنبل وعزة النفس، افيمكن انه هو نفسه الذي لا ينفك يراود الخادمات البائسات على اعز ما لديهن ؟ على عفافهن!؟

كان هذا السؤال اول ما صدم فكري عندما راح صاحبي يطرق الباب. اما انا فلم أر من اللياقة ان ادخل معه في آن واحد لذلك ودعته منصرفاً راغباً في نفسي ان يكون نصيب هذه البنت نصيب غيرها ممن لم يكن صالحات للخدمة في بيوت الناس وبذلك تتخلص من « نكبة محققة » على حد تعبير صديقي رئيس الخدم !

ولكن الاقدار احكاماً . . . فان حضرته - وأعني حضرة الوجيه رب البيت - نظر الى الخادمة المرشحة نظرة استحسان فمينها للغور ونفح رئيس الخدم حفنة من النقود فانصرف هذا وهو يقول :

- انا برسم الخدمة اليوم وغداً والى الابد ..

* * *

بعد خمسة اشهر من هذه الحادثة نشرت احدى الصحف المحلية خبراً موجزاً عن حادث بسيط جاء فيه بدون تعليق « ان فلانة بنت فلان - ومهنتها خادمة - وجدت غرقى في النهر بعد ان اختفت عن بيت سيدها ثلاثة ايام وقد دل التشريح الطبي على انها كانت حبلى . وكل الدلائل تشير الى ان الغريقة ماتت منتحرة ، ومع ذلك فالتحقيقات جارية ! »

انها كانت هي ! هي بنفسها. ذهب عفافها ضحية فقرها وذهبت هي ضحية عفافها.